الطاهر بنجلون

الاعتزال المتوحد *

مهددا من طرف صحة الآخرين الجيدة
واريت غنائيتي
وخرجت .
الذي سيعيش الآن
كائن آخر ...
قررت هذا الصباح أن أخرج .
أن اغادر الغرفة . أن اغادر جسدي . ظننت انه يجبر ، من حين لآخر ، أن يلامس المرء الحيـــاة مرة ثانية ، أن يداعب الاشياء ، أشياء تتحرك ، تتنقل ، لكنها لا ترقص أبـــدا .

مشهد كئيب ، بارد .
لنسدل غلالة على الدمامة العادية .

كنت سابقه مقتنعا بدمامة هـذه الارض المحرومة من الحياة ، الواهنة ، اليتيمة من الشعر والمروءة الجوهريين ، لو لم التق بنجيمة رفرافة ، غزالة متلهفـــة ، مرج من الاحلام ، روضة أمل ، أغنية نابعة مـــن أرض مغتصبة . نعم ، كنت سابقه متنقلا بين وطنـي الداخلي والمصنع ، بيـــن استيهـاماتي وآلامي ، بيـــن الحيـاة بالوكالـة ووهـــم الحيـــاة . كنت سـأزداد غـــورا في حمأة هـــذه الوحدة ، حيث كنت انسق العـــالم وأفكه ، انسج النهار بأذيال الليل ، أزخرف الجحيـم بالالوان ، اختفي في كيس رملي . كل شيء كان يغريني بالاعتزال : العنف اليومي ، استغلال قوة انتاجي ، الحقد أو اللامبالاة ، الطرد المنهجي من الحياة ، الاغتراب عن أهلي . يجب أن اقـــول لكم انني كنت الوذ بأغوار حيـــاتي اضطرارا ، لا رغبة . فهناك الاعتداءات العنصرية . الجريمة . غارات الشرطة . حملات التفتيش . الاهانة . الخوف ... كنت حينئذ اتسربل بالوشاح السحري ، واقذف احلامي في وجه السماء . كنت اتخدر بالصـــور دون كلل ، ما لم يحدث أن ... كان فضائي ينتظم أكثر فأكثر ، فكان ذلك يفزعني . وحين كنت أخرج ، كنت افعـــل ذلك لابرر عالمي الصميمي المغلق ، لاعيد الى يأسي ذلك العنف الذي خلقـه .

التقيت بـ « غزالة » ذات يوم فوق الرمل ، حين قررت مشاهـدة البحر ، والتلذذ باستنشاق الطحلب ، رغم ان السماء كانت رمادية ، والبحر شاحبا .

عيناها أولا ، ثم وطنها .

عيناها . هناك انتشت الشمس خلودا ، منضمة الى كواكب أخرى ، ذارية ضياءها على عيون الاطفال . سماء من النشوة مرصعة لؤلؤتين ... نظرت الى هذه السماء وقرات على جسدها ذاكرة ذات أصوات تتجذر في مكان آخر ، في أرض مسبية ، في مخيمات ، وتحت خيام . من عيني « غزالة » تتشكل مساحة هذه الذاكرة ، عينين واسعتين ، تشعان بريق حنان ، تنثران ضحكة ملأى أملا ووئاما . جلست على ضفاف ذلك البريق ، وقرأت في صفحة النجم . لمحت سرابا ، شيئا يتلألأ ، شيئا يشبه مدينة مجروحة . قالت لي : انها القدس . ان ضياء مثل هذا ، عرسا مثل هذا ، أغنية رمال وسماء مثل هذه ... لا يمكنه الا أن يكون منتميا الـى أرضي ، الى قصيدتـي الاصليـــة .

القدس ، يا مدينة مثنية تحت ذراع السماء !

أطفال ومتشردون يغسلون أحجـارك . احزري ، المحك ، امرأة تلازمني في أحلامي .

جلست اذن على شاطىء هـــذا البحر الضاحك ، وقرات جروحا أخرى ، الموت المفاجىء ، وصاعقة الصحراء . في بعلبك ، ذات أمسية صيفية ، ذات أمسية غشتية ، يتجندل الجسد بين يديك ، مسلوبة حيـاته تحت نداوة هذه السماء الفضية . يرتحل على متن جـواد مجنح ، ذات أمسية صيفية .

كان جسد والدك . يد ثقيلة هوت ، فاغتالت حبا ابديا ، وقطعت ذراعين مفتوحتين لمعانقة القمر الهابط .

حدثتني عن هذا الرجل دونما اشارة الى الموت ، بل الى شساعة الحيـــاة التي تحتفظين بها داخلك . تعلمت أن تعيشي الغياب ، مثلما تعيشين أمـل الارض التي تتفجر من حركاتك وصوتك أشجارا وزهورا .

كانت وحدتي الملفوفة في غلالة قد بدأت تتصدع .

---

* فصل من رواية بنفس العنوان « La Réclusion Solitaire » للطاهر بنجلون . ستصدر قريبا منقولة الى العربيـــة بقـــلم : رشيد بنعدو .

موت والدك لم يحزنني، لانك استطعتِ أن تعرفيني به حيا .

لعلكم ستقولون لي : لماذا هذه الحكاية وسط تعرجات الاعتزال ؟ اقول لكم ان ما أكنه نحو « غزالة » من صداقة وحب هو اني في متاهات ذاكرتي الجديدة والقديمة . تعلقت بهذه الذاكرة ، لانها عطوف ورصينة ، وتمتلك حس الدعابة والمروءة . انها ينبوع حنان لا متناه . كنت خارجا من حقيبة حين فتنتني شمس صغيرة مرحة . « غزالة » هي الروح الحية والحقيقية ، التي لقيها خيالي في أوج صفوه وواقعيته . أبدا لن يكون اعتزالي متوحدا برفقتها . افهموا جيدا : « غزالة » ليست صورة .

لعلّ كلماتي معتوهة ، اذ أتحدث عن غزالة كما لو كانت نجمة . لكنني كنت أشعر بأنني لن أكون بعد تلك الشجرة المجثوثة . كنت حينئذ أتنقل بين عينيها والبحر.

أنصتوا :

كان صوت غزالة مشوبا بلورا واشعاعا ، فكان ذلك يمنحها قدرة عجيبة على فتن الآخرين وبهرهم . ومع ذلك ، كانت غزالة آدمية ، لا تمارس هذه القدرة أبدا . كنا نحب الاستماع اليها ، سواء في التجمعات أو في لقاءات الاحباب والاصدقاء ، ونحب أن يخترقنا صوتها ، نبرة ملهوفة تحتجزها أصابع ناعمة لينة .

تتحدث قليلا عن نفسها .

بعد مدة ، أدركنا ان هذه الكائنة التي نحب كانت تفعل أكثر من تبديد وحدتنا . لم نكن نعرف شيئا كثيرا عن حياة غزالة . غالبا ما كانت تحدثنا عن وطنها ، عن أرضها المسبية . وكانت كثيرة الانصات الينا .

كان بامكاني أن أتخيل هذه الصداقة الجوهرية . لكنني اليوم أعرف انها كانت ستكون ـ جميلة لا شك ـ أقل قيمة من أنفاس قبلة محمومة ، من استراحة مشتركة ، من عشاء مرتجل في ساحة عمومية .

ليست قليلة التحدث عن نفسها فحسب ، بل انها ترتبك بعض الشيء حين توافق على أن تحكي لنا أحلامها. وفي نهاية البوح ، نعرف ان هناك منتزها ، موسما بدون كآبة ، خواتم في أنامل الشمس .

ما أكثر السحب ، منهكة على كتفك ! أبدا لم يكن الصمت عندك هذا الغياب الابيض ، غياب الكلام ، ولا عياء الكلمات التي تتراكم وتتساقط . الصمت . الحقل حيث كان ينبغي قراءة اخاء اليد المفتوحة ، وحنان عين رانية الى أعشاب الخريف الذابلة . الصاعقة التي تصفع شعبك ، جسدنا، في صميم الوجه، بينما يحبو عجزنا من اعدام بالرصاص الى آخر .

استؤنفت المعارك الضارية بين الكتائبيين والفلسطينيين . الوضع غامض . ولبنان يتمزق .

حين ينسدل جفناك ، ليواريا قليلا الحلم الذي تبعدينه عنك ، نفهم ان الارض هناك ما تزال تغتصب ، وبالدم تمتزج .

في ٤٨ ، مزقت الحرب وأشياء أخرى جسدنا وعائلتنا . فرحلنا ليلا . تعرف أنت تلك الصورة الدائمة، صورة شعب مطرود من أرضه ، يمشي على امتداد الطريق ، حاملا بين يديه أمتعة وفي عينيه قطعة من السماء ... ما أكثر الشعوب التي هاجرت الى الصحراء ! ما أكثر الشعوب التي حرمت من نعمة الحياة ! كنا نزحف في صمت نحو حدود اخرى . وكانت ذاكرتنا مغتربة تتقدم في عتمة الليل . كان خالي ، شقيق أمي ـ شيخ عجيب يجب أن تتعرف عليه ـ قد رفض التخلي عن ضيعته ، اذ كان يرغب أن تصبح مأوى يقيم فيه الفلسطينيون بعد تشريدهم . وقد تحققت رغبته ، حيث يعيش اليوم في الارض المحتلة برفقة أطفال صغار .

أرأيت اذن ؟ ان اعتزالك المتوحد ـ وهو اعتزال محكوم علينا به جميعا ، ان قليلا أو كثيرا ـ حالة حقيقية ، أعني انني أفهمها ، لكنها تبقى محصورة في فرد واحد ، فلا يمكن تعميمها على شعب بكامله ، لان شعبا بكامله لا تمكن ابادته .

حدّثني عن أخبار الصورة ...

في مركز الشرطة ، لم يهتم المفتشون ـ المحققون بقصتي ، اذ اعتبروني مجرد أحمق يعاني هذيانا . لكنهم كنسوا ذاكرتي وجسدي كأحسن ما يكون الكنس . كنت على حافة الهاوية . وحين أفرجوا عني كنت أشعر بأن رأسي فارغ ، حيث اختفت الصورة ، وأصبحت عاجزا عن مخاطبتها . لم يعد أي شيء ينطلق من رأسي هذا . جرّعوني أدوية مختلفة ومواد غريبة . وكنت أتقيأ طيلة الوقت . لعلهم غسلوا دماغي كما يقال ! وفي أول ليلة قضيتها في الغرفة ، كنت أحسّ ألما حادا ، لدرجة انني مزقت كل شيء : أقمصتي ، الحفتي ... كنت أتقيأ كثيرا ... كنت عاجزا عن الكلام ... فزارني الاطباء ، ووضعوني في المستشفى . كنت أقضي وقتي كله نائما . وكان رأسي مشحونا فراغا أو سحابة بيضاء كثيفة ... بل فقدت ذاكرتي . كل هذا بسبب امرأة ، هل تفهمين يا غزالة ؟ بسبب الغياب ، لا الحلم . ومر وقت طويل قبل أن أغادر المستشفى. والآن ، تكاثرت تجعدات جلدي. كان بوسعي أن أستسلم ... لكنني كنت سأغرق نهائيا. ثم ازداد صحوي . وحين التقيت بكِ ـ حدث ذلك في « رويان » ، أليس كذلك ؟ ـ كنت على وشك أن أتخذ قرارا هاما : أن أعود الى أرض الوطن ، أو أبقى هنا ، لكن بشروط مغايرة . لست أدري الآن . في الواقع ، لن تكون عودتي الى الوطن ، من الناحية السياسية ، الا شيئا معقولا . لكنني اللحظة أشعر بحاجة تتزايد الحاحا الى الانطلاق خارج جسدي ، خارج حقيبتي ، الى الرحيل من هنا ، والاندماج في الآخرين... فلا أحد يهتم ببؤسي الخاص ... يمكنني أن أناضل في منظمة نقابية ، لكن هذا سيفرض عليّ تقديم عدة تنازلات . لا ! النقابات هنا تسعى من أجل تحسين الاوضاع ، لا قلبها بطريقة جذرية. انها توقر الشغل . الشغل استلاب مروع ، اذ لا يحق للانسان أن يفعل ما يشتهي فعله . الشغل يأكل الحياة ، يلتهمها ، ويلغي أجساد الناس . يقول صديقي

« فرانسوا » : « لا أرغب في أن أقضي حيـــاتي رابحا اياها، ثم افقدها من بعد » . الناس لا يعبرون عن آرائهم . هل تعتقدين أنت ان عاملا ــ مهـاجرا أو غير مهاجر ــ يجد الوقت ليحيا حياته ؟ انه لا يجد الوقت الا لاختلاق الصور ، صور تخنقه في النهاية وهو نائم . ان عمـــلا اجتماعيا ضروريا من شأنه وحده أن يمكن الناس من أن يحيوا حياتهم ، أي أن يعبروا عن ذاتيتهم ، هل فهمتِ ؟

انصتي الى ما يقوله كذلك صديقي « فرانسوا » :

الا بد ان تكون الحياة مجرد هذا :
انسحابا للاموات
الذين هجرونا ،
ملوكا سخريين ؟
لقالق العصور البائدة
كل يوم تخترق احلامي
تطير نحو البرج الكبير
حيث تتسكع وجوه
كل وجوه الاموات
الذين نسوا الاحياء
ويبكون منذ غابر الزمان
وبهدوء تام
في كوكبتنا .

هل رأيتِ ؟ سأرسم لك الآن بيان رحلة انســـان مغترب : بؤس محلي ــ جواز السفر ــ رشوة ــ اهانة ــ زيارة الطبيب ــ ادارة شؤون الهجرة ــ السفر ــ رحـلة طويلة ــ السكن بالصدفة ــ العمل ــ المترو ــ الحقيبة ــ الاستمناء ــ الصاعقة ــ الحادثة ــ المستشفى أو القبر ــ الحوالة ــ العطلة ــ الاوهام ــ العـــودة ــ الجمارك ــ المستشفى ــ الموت ــ الحادثة ــ الاستمناء ــ العاهرة ــ الزهري ــ المترو ــ صور ــ صور ــ صور ...

يبقى طبعا الحل الآخر . هـــذا الحل لا يكتب ، لا يتكلم عنه باسهاب ، بل يمارس بالفعل .

ترجمة : **رشيد بنحدو**

صدر للمؤلف :

- « Hommes sous linceul de Silence »
Casablanca , Ed . ATLANTES , 1971 , 69 ,p . poèmes.

- « Cicatrices du Soleil » ,
Paris , Ed . MASPERO , 1972 , 114 p . poèmes .

- « Harrouda » ,
Paris , Ed . denoêl , 1973 , 188 p . , roman .

- « Le discours du chameau » .
Paris , Ed . MASPERO , 1974 , 82 p . , poèmes .

- « Grains de peau » , sur des photos de Mohamed Benaïssa , Casablanca , Ed . SHOOF , 1975 , poème .

- « Les amandiers sont morts de leurs blessuress » ,
Paris , Ed . MASPERO , 1976 , 268 p . , poèmes .

- « La mémoire Future » , anthologie de la nouvelle poésie du Maroc ,
Paris , Ed . MASPERO , 1976, poèmes .

- « La réclusion Solitaire »
Paris , Ed . Denoêl , 1976 , 138 p . , roman .

- « La plus haute des Solitudes » ,
Paris , Ed , du SEUIL , 1977 , 172 p . , essai .

من توقيعات نفي

مصطفى النيسابوري

أنا البدوي
بكتابات رملية
أشفي جروح الصيرورة
في الترقب

سأطارد صورة الموت
فيكم
في آفاقكم المنجمة
وحيثما يكون
مرتديا قفاطين / باقات كيف
معرّبا سرابات الموت
فاتنا مثل قراءة أيادينا

لانني أراكم
سأبقي ذكرياتي فجرا
بدونكم
صلاتي غير المسموعة
في مستنقعات

---

* **من ديوان للشاعر عنوانه :**
« La mille et deuxième nuit »
Casablanca , Ed . SHOOF , 1975 , 110 p .

له كذلك ديوان اخر عنوانه :

Plus haute mémoire »
Rabat , Souffles , « ATLANTES » , 1968 , 16 p .